ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 01 (2021) ص: 60 – 73

# جماليات التشكيل اللغوي في تجربة ابن الشاطئ الشعرية من خلال ديوانه "أبجدية المنفى والبندقية"

# *The aesthetics of language training in the poetic experience of Ibn al-Shati through his book The Alphabet of Exile and Venice*

د. عبد القادر العربي

جامعة محمد بوضياف المسيلة- الجزائر -

kaderla14@gmail.com

**معلومات المقال**

تاريخ الإرسال:
02 جوان 2020
تاريخ القبول:
29 نوفمبر 2020

الكلمات المفتاحية :
- ✓ الارتباط
- ✓ الفني
- ✓ الدلالي
- ✓ الرموز
- ✓ الشعر

**الملخص:**

تتجه هذه الدراسة للبحث في العلاقة التي تربط الشعر بالتشكيل اللغوي في تجربة ابن الشاطئ الشعرية، وهي علاقة تقوم على رؤية فنية جمالية جعلت قصائد ابن الشاطئ تنفتح على إمكانات جديدة واحتمالات دلالية شاسعة، تمتزج فيها التجربة الذاتية بالممارسة الفنية وقد كشفت هذه الدراسة مدى تطور المعجم الدلالي والفني عند ابن الشاطئ، وانه أصبح متاح من مصادر شتى قديمة وحديثة مما أخرج قصائده في حلة قشيبة، ولوحة شعرية ناطقة بالجمال والجلال وحسن السبك، جعلت المتلقي يقبل عليها بنهم وبحث عميق متأملا في ألفاظها وصورها البلاغية الموحية، فقد ذلل ابن الشاطئ صعوبات اللغة وتضاريسها فقد جرب قدرته على إبداع قاموس خاص به دل على شخصيته الثائرة ضد الظلم والوفية للوطن وقضية فلسطين بالدرجة الأولى، لقد حدث التفاعل بين الشاعر والمتلقي عن طريق المضامين المختلفة التي عجنها الشاعر بروح المسك وفتّها حتى عم أريجها أرجاء الفضاء النصي، وقد أودع ديوانه أبجدية المنفى والبندقية عصارة شاعريته وضمخه بجزيل العبارات الدالة على حب وطنه والإخلاص لأبناء شعبه.

***Article info***

*Received*
*02/06/2020*
*Accepted*
*29/11/2020*

**Keywords:**
- ✓ *Correlation*
- ✓ *Artistic*
- ✓ *Semantic*
- ✓ *Symbols*
- ✓ *Poetry*

***Abstract :***

*This following study aims to search in the correlation that links the poetry with the linguistic formation in the title of ibn al shatitthat is related to poetry , and it is considered a correlation that is based on a new aesthetic vision that made his poems tap into more immense new linguistic possibilities , where the personal experience is linked with the artistic practical terms , and the study also highlights the extent of which the semantic and artistic lexicon have evolved in addition to that it became possible and accessible from many old and new sources which made his poems sublime and a piece of art that made whoever read his works want to read more taking into account the words and expressions used as well as the use of figurative language to symbolize the resistance and rebel against the despair and the ideals of evil for his people and homeland*

**مقدمة**

الشعر في الحياة كالذهب في الأرض قليل ونادر ولو لم يكن كذلك لكان كل من نظموا الكلام شعراء، وكثير هم في عصرنا هذا أولئك الذين يركضون وراء سراب يسمونه شعرا والقليل من هؤلاء الراكضين فقط هم الذين يأتي إليهم الشعر كأصفى وأعذب ما يكون، ومن هؤلاء الشاعر اسماعيل ابراهيم المعروف "بابن الشاطئ"، فهو أحد الشعراء الذين شكلوا مشهدنا الشعري في زمننا المعاصر وهو من الذين كتبوا شعرا حقيقيا، ومافتئ يبحث في تراب اللغة عن ذهب يصلح لكتابة قصيدة عصماء تتغنى بها الأجيال أزمنة تترى ، فالشعر ليس جوهر اللغة فحسب وإنما هو جوهر الحياة ذاتها يسكن الكون كما يسكن وجدان الإنسان عبر فضاء فسيح من الإحساس والتصورات، وهو ليس كلاما إنسانيا معزولا عن الخطاب الصامت الذي تطرحه الطبيعة كل لحظة، متحدية به الإنسان قبل عينيه، ووجدانه قبل أذنيه، صحيح أنّ الشعر قدرات معرفية وتخييلية لا يمسك بأطرافها الملتهبة سوى الشعراء الحقيقيين، إلا أنه ثاو في كل نفس والدليل الأقرب على ذلك أنه ما يكاد يقرأ الشعر أو يغنّى حتى يستيقظ إيحاؤه وينشط ويستنفر كل الحواس أيا كانت شخصية المتلقي، وأيا كان مستوى ثقافته وإن كان أثر الشعر أعمق وحضوره أرهف في وجدان المتلقي المالك ثقافة شعرية عالية، وإحساسا جمالايا بصوره وتراكيبه وأخيلته، فثمة علاقة وثيقة تؤكدأهمية الشعر وفاعليته والجهد الإبداعي المتميز الذي يبذله عدد من الشعراء الكبار، الكبار حقا بما أبدعوه لا بما أنفقوه من سنوات العمر ومن هؤلاء الشاعر الفحل "ابن الشاطئ"

**التعريف بابن الشاطئ**

هو اسماعيل ابراهيم المعروف بابن الشاطئ من مواليد قرية الجسير الواقعة بين الخليل وغزة عام 1939، ذاق مرارة اليتم باكرا وحمل لواء رعاية أسرته المكونة من ستة أفراد، وعن اسمه تقول الدكتورة "حسناء بوعلاق" "ابن الشاطئ" هكذا سمى نفسه فعاش كما اسمه على شاطئ الحب والعشق هائما بربوع أمته الحبيبة، ووطنه الغالي، أما اسمه في بطاقة الهوية فاسماعيل ابراهيم شتات، وكان له من اسمه النصيب الأوفر، نبغ في دراسته رغم حداثة سنه إلى أن أصبح من أفضل شعراء الضفة الغربية والأردن في خمسينيات القرن الماضي، خبر النضال فالتحق بصفوف الحركة الوطنية الفلسطينية في سن مبكرة، سجن فكان سجنه بداية لإلهامه الشاعري ومهدا خصبا لبداية ولادة روائعه السحرية، فر من السجن العسكري بمساعدة رفاقه وقد حكم عليه بسبعة عشر عاما "17" فكانت وجهته لبنان لكن سرعان ما شد الرحال إلى مصر، وهناك اجتهد في دراسة اللغة العربية فتتلمذ على أساطينها من أمثال الدكتور طه حسين واسماعيل عز الدين وعائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، وربما كان تأثيرها عليه بارزا مما استدعى إطلاق لقب ابن الشاطئ عليه مستقبلا، موطنه الأول فلسطين فاتنة الشعراء والمبدعين وهي موطن ألحانه وأشجانه وصرخاته، برع في فن الشعر وأحكم زمام قوافيه فكان بلبلا صيداحا يشدو بين الجداول والحقول الفيحاء، واتخذ من قضية فلسطين المنهل الأول الذي يرتوي منه ويعب من معينه الثر، فأصبح شعره نبضا صادقا لكل الفلسطينيين، وأثناء تواجده بلبنان ارتوى من منهل شعرائها الكبار فصاحب أغلبهم وكل واحد ترك فيه بصمة في جانب ما، وبعد مدة انتقل إلى سورية وهناك اشتغل في عالم الصحافة كمحرر في جريدة سياسية تابعة للحزب التقدمي الإشتراكي بزعامة اللبناني كمال جنبلاط ، وفي مدينة اللاذقية كان مهوى فؤاده "سعاد قدسي" فتزوجها وعاش معها زمنا رغيدا متنقلا هنا وهناك، وفي سورية أسس أول رابطة أدبية سماها "رابطة أدباء الساحل" عام 1966، كما أنه كان أحد مؤسسي اتحاد الكتاب العرب في سورية، التحق في يناير 1965 بالثورة الفلسطينية فتقلد عدة مهام سياسية وإعلامية وعسكرية، إلى أن انتهى به الترحال إلى الجزائر التي قال فيها:

وإن سهم أصابك في بلاد ففي الجزائر لن تصابا

مع بدايات السبعينيات حط ابن الشاطئ الرحال ببلد الشهداء ليعمل مدرسا في مدينة وهران بعدها انتقل إلى الإعلام، بدعم من صديقه الراحل "الطاهر بن عيشسة" فاستلم القسم الثقافي في مجلة المجاهد الأسبوعي ليؤسس أول صحيفة أدبية حملت اسم "مرايا أدبية"، وعند تأسيس الإذاعة الجزائرية الموجهة للمشرق العربي استدعي ابن الشاطئ ليكون أحد أبرز معدي ومقدمي البرامج الثقافية فيها، تزامنا مع إعداده لبرنامج "كلمات إلى فلسطين" في إذاعة فلسطين التي كانت تبث من الجزائر، لم يدم التفرغ للإعلام أكثر من سنتين وسرعان ماعاد إلى التعليم، مع احتفاظه بمرايا أدبية في صحيفة المجاهد ومن بعدها أوتار وموازين في جريدة الشعب، فاشتغل مدرسا في كل من تيزي وزو ومعسكر وجيجل، وفي المعاهد التكنولوجية سابقا لتكوين الأساتذة والمعلمين، في كل من المدية ثم جيجل مرة ثانية وكذا في جامعة جيجل كأستاذ متعاقد، إبان وجوده بالجزائر ربط علاقات حميمية مع قامات شاعرية وكفاءات فنية منها شاعر الثورة مفدي زكريا الذي لقبه "بشاعر الثورة الفلسطينية" لأن فلسطين كانت شغله الشاغل فملكت كيانه وغمرت ذاته ، كما كانت له علاقة متينة مع الشاعر محمد الأخضر السائحي رحمه الله، وتبادلا الزيارات والمساجلات الأدبية وكان كل منهما يقر بالشعرية للآخر، وقد تعامل مع بعض المطربين ليغنوا كلماته منهم السيدة سلوى، لقد كانت أشعاره قذائف على المستبد الصهيوني، فقد حرك مشاعر العرب جميعا بصولاته الإبداعية، وسافر بنا جميعا إلى الأرض المحتلة محذرا ومتوعدا العدو من غضب الجماهير وأنّ فلسطين أرض عربية طال الزمن أم قصر ولا بد من عودتها لأهلها إن وثقوا في ربهم وتوحدوا وصاروا على أتقى قلب رجل واحد، لقد كان شعلة في كل شيئ وهذا ديدنه وهذه عقيدته التي آمن بها، لقد ترك لنا أثارا مطبوعة ولكنها نادرة الوجود في المكتبات وهي تمثل درر من موهبته الشاعرية ومن عطائه الإبداعي غير المحدود وماتركه مخطوطا لا يعلمه إلا الله وأهله والمقربين منه فمن دواوينه التي رأت النور في حياته أذكر مايلي:

- خفقات قلب طبع عام 1964 بسورية.
- محطات على ذاكرة الزمن طبع عام 1966 بسورية.
- دائرة الرفض طبع عام 1978 على عاتق اتحاد الكتاب الفلسطينيين.
- الزمن الفلسطيني في البعد الثالث طبع 1979 ببيروت.
- غاليتي لا تجيد فن الرقص طبع عام 1983 ببغداد.
- ميسون وسرطان الموقف الصعب طبع عام 1983 ببغداد.
- اعترافات في عز الظهيرة طبع عام 1983 ببغداد.
- الحدائق المعلقة والزمن البديل طبع عام 1999 ببغداد.
- دوامة النخل وسيف الحق.
- أبجدية المنفى والبندقية طبع عام 2004 رابطة ابداع الثقافية الجزائر.
- أم أوفى تتجدد رغم الليل الطويل طبع عام 2007 في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

كما له أعمالا نثرية ودراسات أدبية وسياسية مشتتة هنا وهناك ، وله نتاج مدرسي ودراسات أكاديمية منها كتابه "الشامل الميسر في قواعد اللغة العربية" في ثلاثة أجزاء من أهم روائعه معلقة بابل وقصائد تقطر شهدا وسلسبيلا، وبعد نشاط وحركة دؤوب صمت هذا الصوت للأبد ليترك ساحة الإبداع موحشة تنتظر كلماته الرصينة وجمله الموحية لتملأ المكان والزمان فرحمك الله يابن الشاطئ لقد ملأت الدنيا وشغلت الناس من بعدك فلله درك والله يتولاك برحمته، لما فاضت روحه إلى ذات بارئها ذات يوم من عام 2008 رثاه الشاعر سليمان جوادي بأبيات تبقى خالدة إلى الأبد:

انهض فأنت الزيت والمشكاة

واسطع علينا إنها المأساة

يا فارس الفصحى وزين شبابها

حالت علينا بعدك الأوقات

أكتب على حال العروبة غافيا

فالحي ... أنت وكلنا أموات

لقد كان القرن الماضي قرن التحرر الوطني من الاستدمار وبزوغ فكرة التحرر العربي، ولم يعرف ذلك القرن على امتداده قضية شغلت الضمير العربي وأرّقته ورهنت السياسات القطرية بها ولا سيما في المشرق العربي وحتى في المغرب العربي "كقضية فلسطين" وعلى الرغم من اختلاط هذه القضية بقضية الجولان وسيناء بعد هزيمة 1967 فإنها لم تفقد شيئا من الاهتمام بها، بل ظلت لب الصراع العربي – الإسرائيلي وجوهره وعنوانه، ولم تستطع معاهدة "كامب ديفيد" بكل ملابساتها التاريخية وعواقبها أن تجرد هذه القضية من بعدها العربي والإسلامي والديني، فظلت حية في نفوس أبنائها جميعا، ولم يستطع اجتياح لبنان عام 1982 وإخراج منظمة التحرير الفلسطينية منه أن يغيرا من موقف العرب منها، بل لعل تشرد قوات المنظمة في الأقطار العربية كان أحد الأسباب التي أدت إلى تصلب الموقف العربي، وإلى دفع الشعب الفلسطيني إلى مزيد من التضحية والفداء حفاظا على هويته العربية، وتعزيزا لها فكانت انتفاضته الأولى في السابع من ديسمبر من عام 1987، واستمرت تلك الانتفاضة الباسلة تقض مضجع اسرائيل، وتذكي في الوجدان العربي روح التحرر والفداء حتى انعقد مؤتمر مدريد عام 1991 في أعقاب حرب الخليج الثانية، وانهيار التضامن العربي، ولم يكن هذا المؤتمر في حقيقته سوى إيهام بإنهاء الصراع الصهيوني، فتح الباب العربي أمام اسرائيل، لقد ظن المؤتمرون أن أمريكا ستكافئهم على دخولهم في التحالف الدولي، وتفتح لهم الدروب إلى جنوب لبنان والجولان والقدس ففتحت الدروب إلى "أوسلو" حيث وقعت منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل معاهدة وصفها بعضهم بأنها مملوءة بالثغرات، وكل ثغرة فيها تحتاج إلى أوسلو جديدة؟ لقد عجزت أوسلو عن تحقيق تطلعات الشعب الفلسطيني وواصلت اسرائيل سياستها العنصرية المتطرفة، في مجتمع دولي وحيد القطب أعرجا، وفي رعاية دولة غير مؤهلة لقيادة العالم ولم يجد الشعب الفلسطيني الأبي أمامه إلا استئناف ثورته متحديا ظروفه التاريخية القاسية فكانت انتفاضة الأقصى المباركة في 28 سبتمبر 2000 بعد قيام "شارون بجولة استفزازية في باحات المسجد الأقصى، فكان لزاما على الشعر أن يواكب تلك اللحظة التاريخية ويسجل نظرته للأحداث وهنا تهفو حنجرة شاعرنا ابن الشاطئ معبرة عن كوامن ذاته والغصة التي سكنت حلقومه فجادت قريحته بهذه القصيدة

العصماء التي تقطر آهات وتبكي دموعا ثرة على وطن اسمه فلسطين وعلى أمة تدعى الإسلامية والعربية، وعلى حكام متخاذلين ومسؤولين متآمرين

ماذا أسميها ...؟ منارة أم تلك معجزة الحجارة ....؟

يتحدث البركان من فمها ...وتحتل الصدارة

فعلى جبال الشمس تلظم خيطها الصاحي ..منارة

وتخط فوق جوادها طفلا تجسده الجسارة

متمترسا حجرا ... ومن مقلاعه تلد الشرارة .....

هو فارس الميدان .... لا يثنيه ربح أو خسارة

وعلى مخيمه الأبي تربعت مدن المحـارة .....

ما أعظم البعاد سيدتي ... و ما أغنى الإشارة

يتجمع الأطفال في اللغة الجديدة عن جدارة

وتجوب أذرعها النقية كل زاوية وحارة

ماذا أسميها ...؟ أعمر الأرض ..؟ أم فجر البشارة ؟؟؟

ها قد تعملق ماجد ورفيقه .. ولمى ... وسارة

وتحاصر النازي ... كيف يفك غاليتي حصارة ..؟

يا أم أوفى .. تلك جا رتنا ..وذاك أخي عمارة

وعلى اليمين " ربيعة " وعلى اليسار مشت " فزارة "

علمي يرفرف خافقا الله ....ما أحلى حواره

الكل في حرم الصمو د مشيئة تهب الحضارة

والحب يعرف كيف يط لع من محاجره نهاره ...

فقوائم الشهداء يـا قديستي تحتل داره

تتقزم الألفاظ والـ خطب البليغة .. والتجارة

وتظل " بئر السبع " ما ثلة وترتفع الستارة

ويموت كل الشعر كل النثر .. في لغة الحجارة ..[1]

إن الشاعر ابن الشاطئ في هذه الدرة أفرغ كل ما تختزنه ذاته الأبية من حنق على العدو الاسرائيلي، وفي الوقت ذاته يشجع أبناء جلدته على ضرورة التمسك بحق العودة إلى أرض فلسطين، وعدم التفريط فيها، ولا جدوى من انتظار مفاوضات فاشلة منذ يومها الأول، لأن الطرف المفاوض لا حس له ولا خبر قد انعدمت قدسية الأرض والعرض لديه حتى صار العدو يساومه في أعز مقوماته وهويته فقالوا له

الأرض مقابل السلام، ولا يوجد انبطاح أكثر من هذا الذي سكن بعض النفوس المريضة التي تتكلم صباحا ومساء باسم الشعب الفلسطيني الأبي، الذي تاجر العرب بقضيته وباعوها في سوق النخاسة، وكأن الشاعر يلهب حماس أبناء فلسطين ويقول لهم إن فلسطين لا تحررها مفاوضات حنان العشراوي ولا أبو مازن ولا أي خانع ولا مستكين، فالذي يحررها هم أبناء الحجارة العارية صدورهم والذين يواجهوا العدو وآلته الاستدمارية بعزيمة فولاذية، كلهم إيمان بالقضية وثقتهم في الله لا حدود لها، فمن أراد أن ينعم بالراحة ولا يرغب في رؤية أي مستبد من بني صهيون على أرضه الطاهرة، لا بد عليه أن يقبل على الحياة بصدر منشرح ويساهم في طرد هؤلاء الطغاة، الذين عتوا وأكثروا الفساد في الأرض وفي مقدسات المسلمين، فالشعارات لا تسمن ولا تغني من جوع، فالشاعر أكد على سلاح الحجارة ومدى فاعليته في الميدان فالعدو لا يفهم إلا تلك اللغة القوية وتلك الاستماتة الطويلة من أبناء الشعب الواحد، فقد شبه ثورة أطفال وشباب الحجارة بالبركان الذي تتطاير حممه فتجرف كل ماتجده أمامها وكذلك الانتفاضة الأولى أو الثانية فقد هدمت مخططات الغزاة الصهاينة وبددت أحلامهم التي يتمنون تحقيقها على أرض الواقع ولكن هيهات لهم، لقد اتخذ الفلسطيني الباسل سلاحه من المقلاع ولكن مع الإخلاص في النية والهدف ستتحقق الضربة وتؤتي أكلها، رغم ما يستعمله العدو من وسائل حربية متطورة ولكن الإيمان بقدرات الشعوب وحدسها الداخلي يصنع الفارق بين الطرفين فشتان من يدافع عن قضية حية وراسخة وفكرة صحيحة ومن يدافع عن باطل وآمال زائلة لا محالة، فقد وصف لنا الشاعر حالة الشعب الفلسطيني من الداخل وحياة الشتات التي لزمته منذ أن ضيع العرب والمسلمون حق استرداد فلسطين وعدم تفاعلهم مع قضاياهم الكبرى، فحين الخطب تتعطل كل اللغات ولا تجدي إلا لغة واحدة ووحيدة وهي لغة الحجارة التي أثبتت وجودها وفاعليتها في الميدان دون سواها، فهو يرى بأن بشائر النصر وعلامات الفرح يرسمها أولئك الأطفال والفتية الذين أخلصوا لقضية وطنهم فأنجز الله على أيديهم بعض الكرامات، كيف لا يكونوا عطور الجنة وهم يدافعوا عن عرضهم وشرفهم المستباح الذي تهاون في الدفاع عنه كبار القوم، فقد ذكر الشاعر بأماجد هذه الأمة حتى يبعث روح التنافس والاستبسال في ذوات أولئك الفتية كي لا تخور قواهم مما يسمعوا من كلام مثبط أو من مواقف مخزية لبعض حكام العرب الذين سلطهم الاستدمار على رقابهم، وفي قصيدته هذه يذكر أم أوفى زوجة زهير بن أبي سلمى التي هجرته بعد أن تزوج عليها لكنه لم يستطع نسيانها لما رأى فيها من الوفاء والصدق، فهو يوصي أبناء الحجارة بضرورة الوفاء لقضيتهم مهما حدث من أمر، لأن المثبطين في كل زمان ومكان والمنتهزين يتربصوا بهم الدوائر، فلا يسمحوا لهم ركوب قاطرة الإنتفاضة في آخر محطة لوصولها إلى بر الأمان والحرية فابن الشاطئ يرفض الاستسلام والانبطاح والخنوع للعدو، وهو يستقي معجمه الإبداعي من تاريخ أمتنا الزاهر، وما استخدامه لشخصيات مثل ربيعة وفزارة إلا دليلا على غزارة اطلاعه على تاريخنا المرصع بالأعمال المشرفة والخالدة، فينبغي أن تبقى راية الجهاد رفرافة عالية لا تنحني أبدا أمام أولئك الصهاينة والمتنجسين، وما ذكر الأماكن العزيزة على نفس الشاعر إلا علامة واضحة على تشبثه بتراب وطنه وكرامة شعبه، فقوافل الشهداء لا تنضب وجحافل الشرفاء لن تخبو في أي زمان ولا مكان، وما على الواحد منا أن يحدث ذاته ولو مرة بضرورة الجهاد في سبيل أوطاننا ومقدساتنا حتى نعيش بشرف أو نموت دونه، فلا تجدي الأشعار ولا الكلمات أمام الواقع، فالحجارة هي كل شيئ وهي الدليل لمن أراد الحرية وكسر قيد العبودية، فقدر الشعب الفلسطيني هو نيل الشهادة وفاء لتاريخه المضمخ بالدماء وعلى الشعوب أن تواجه أقدارها وشروطها التاريخية، فالانتفاضة حلت عقد كثير من ألسنة الشعراء والمبدعين فطفقت تعبر عما تموج به السرائر، لقد بدأ ابن الشاطئ قصيدته باستفهام غرضه الحصول على إجابة يقينية لما قامت به سواعد الأطفال والفتية، أهي معجزة ربانية أجراها الله على

أيدي هؤلاء الفتية الطاهرة أيديهم والنقية قلوبهم، أم هي كرامات ربانية منحها الله لمثل هؤلاء الصغار ليثبتوا للعالم أن صدق النية والإخلاص سبيل نجاح كل عمل هام في هذه الحياة، وغلبت على أبيات القصيدة ظاهرة كثرة الأفعال المضارعة لتؤكد للمتلقي استمرارية الفعل وسيرورته مادام في القلب نبض حياة، وعزم لا يلين من شباب همهم الأول والأخير تحرير الأرض والدفاع عن شرف الأمة، ولتوضيح رؤيته للمتلقي استخدم ابن الشاطئ الرمز لترسيخ فكرة أو استجلاء غموض، فالرمز لم يفارق الشعر العربي على امتداد تاريخه، لكأن الرمز والشعر صنوان بل هما كذلك حقا، وقد تبدو هذه الحقيقة غريبة على كثير من الناس الذين استقر في ضمائرهم أن الشعر العربي لم يعرف الرمز إلا في العصر الحديث، فإذا هم بين من يمط شفتيه ومن يقلب كفيه أو يشيح بوجهه، "يبدأ الرمز من الواقع ثم يتجاوزه حتى يبلغ درجة عالية من الذاتية والتجريد، ويستقل بذاته منقطعا عن سواه[2]

وهو كما يقول اليوت "يقع بين الشاعر والقارئ مع اختلاف في طبيعة صلته بكل منهما، فهو من حيث صلته بالشاعر محاولة للتعبير ومن حيث صلته بالقارئ منبع للإيحاء.

**التشكيل اللغوي في شعر ابن الشاطئ :**

لقد أحرزت الحداثة في معركتها مكسبا نظريا ضخما في ميدان نقد الشعر، فرأته فنا لغويا "بنية لغوية معرفية جمالية معا" تتحدد فنيته بكيفية استخدامه للغة لا بمحمولاته الأخلاقية أو الاجتماعية أو السياسية أو سواها، ولكن هذه الكيفية لا تحول دون وجود هذه المحمولات في الشعر، بل إنّ وجودها مشروع إن لم يكن ضروريا، فلكي يحقق النص الشعري وظيفته الجمالية ينبغي أن يحقق وظيفة إضافية أو أكثر، فمزج الدلالة الفنية بغيرها من الدلالات يمثل الملمح الأساسي في عملية التوظيف الاجتماعي لهذا النص الأدبي أو ذاك "فلكي يحقق النص غايته الجمالية يجب أن يحمل في الوقت نفسه عبء وظيفة أخلاقية، أو سياسية أو فلسفية أو اجتماعية وبالعكس، فهو لكي يحقق دورا سياسيا معينا – على سبيل التمثيل – ينبغي أن يؤدي وظيفة جمالية[3].

ومن الطبيعي أنه في بعض الأحيان قد لا تتحقق بالنص سوى وظيفة واحدة وقد انبثقت من هذه النظرة إلى "مفهوم الشعر" نظرة جديدة إلى "نقده"، فغدت دراسة الشعر من منظور لغوي منهجا نقديا بارزا يشيّد علميته على دعامتين:

أولاهما: ملاءمته لتفسير المادة التي يدرسها – وهي شرط لا غنى عنه لقيام أي علم، وتنجم هذه الملاءمة عن انبثاق المنهج والمادة من مفهوم لغوي معاصر.

ثانيتهما: أدوات نقدية مرهفة ذات كفاية عالية، بيد أننا ينبغي أن نقيّد القول قليلا وألا نسرف في الظن فنتوهّم أن كل شيئ قد أصبح محكوما فكأنما هو في قبضة اليد، وأنّ الطريق إلى جوهر[4] الشعر قد غدت قاصدة موطّأة الأكناف، إن بعض هذا الظن يكفي فليس يملك المنهج – مهما تكن كفايته – أن يتغلغل في شعاب الشعر المرجانية، وأن يصل إلى جوهره إذا لم يكن الناقد نفسه خبيرا مدربا وذواقة كانما نبعة الشعر بين جوانحه، وإلا فما أيسر أن ينقلب المنهج إلى منهج رجيم يفتك بالشعر ويذبحه من الوريد إلى الوريد، ويقتضي الحديث عن اللغة في شعر ابن الشاطئ أن نحدد المقصود باللغة في الشعر، فما المقصود بها إذا؟[5]

إنّ اللغة كما هو معروف نظام متكامل متعارف عليه من الرموز التي يتفاهم بها الناس، ومن الواضح أننا لا نقصد هذا النظام بل نقصد أمرا يتجاوزه، نقصد القول الشعري؛ أي صورة اللغة المتحققة في شعر هذا الشاعر، وهي صورة تتميز عن غيرها من الصور بسمات كثيرة كالمعجم اللغوي والطريقة الخاصة في بناء الجمل، والربط بينها وسوى ذلك كثير، وهي السمات التي تكوّن الأسلوب، وعليه فإننا نقصد بـ "اللغة في شعر ابن الشاطئ" أسلوبه الشعري وهذا الأسلوب هو الذي يجسد التجربة الشعرية بالكلمات التي تستخدم استخداما كيفيا خاصا، وهو الذي يمنح القصيدة طاقاتها الثرة، وبتعبير أوضح إنّ لغة الشعر هي مكونات القصيدة من الألفاظ والتراكيب والخيال والموسيقى والموقف الإنساني، وعليه يمكننا دراسة اللغة في شعر ابن الشاطئ "1939 -2008".

ذكر الدكتور ابراهيم السامرائي أنّ الأصمعي قد "تحرج في استخدام لغة الشعر في شرح لغة التنزيل على نحو مافعل غيره من علماء اللغة كأبي عبيدة مثلا في كتابه "مجاز القرآن". ويعلل ذلك بقوله "ولعله قد فهم أنّ لهذا الفن لغته الخاصة".

وليس يريد ابراهيم السامرائي بهذا الذي ذكره أنّ للشعر ألفاظه الخاصة، بل يريد أن اللفظ في الشعر مختلف عنه في غيره، فهو في الشعر يكتسب دلالات إضافية، حتى لتبدو ألفاظ كثيرة ذات رصيد دلالي ضخم، ولعل الناظر في معاجمنا المطوّلة يدرك هذه الحقيقة فهي معاجم ذهبت معاني ألفاظ الشعر بشطرها الأعظم حتى أوشكت أن تكون معاجم شعرية، وما أكثر ما شكا الشعراء من الكلمات التي تسكنها أصوات الآخرين، وما أكثر مافتشوا عن الكلمة العذراء إنهم يريدون أن يجددوا شباب اللغة وأن يفجّروا طاقاتها، وما ذلك إلا لأنّ الشعر ذو طبيعة ازدواجية كما يرى لوتمان "وتنبع هذه الازدواجية من كونه يعنى بتتالي الكلمات كما يعنى بالكلمة في الوقت ذاته"، ويزيد المسألة وضوحا فيقول "فالكلمة في الشعر هي في الأصل كلمة تنتمي إلى لغة ما هي وحدة في متن يمكن أن نجده في القاموس، ومع ذلك فإنّ هذه الكلمة تبدو وكانها ليست معادلة لنفسها، ومن ثم يغدو تشابهها أو حتى تطابقها، مع الكلمة القاموسية سببا في الإحساس الواضح بالاختلاف بين هاتين الوحدتين المتباعدتين المتقاربتين، المستقلتين المتوازيتين نعني الكلمة في مفهومها اللغوي العام والكلمة عنصرا في القصيدة الشعرية" ثم يتابع "فالكلمة في الشعر أكثر قيمة من تلك التي في نصوص اللغة العامة، وليس صعبا أن نلاحظ أنه كلما كان النص أكثر أناقة وصقلا كانت الكلمة أكثر قيمة وكانت دلالاتها أرحب وأوسع".

فإذا صرنا إلى التركيب صارت القضية أعقد واخصب فعلى المستوى التركيبي يتجلى جوهر الشعر تجليا باهرا، وفيه يمارس الشاعر كل شعائره السحرية محاولا أن يعيد إلى اللغة وظيفتها، السحرية القديمة، إنّ التركيب بناء وبناء لغة الشعر يختلف اختلافا عميقا عن بناء لغة النثر، فالشعر قياسا إلى النثر انحراف "مجاوزة، عدول، انزياح" وخاصية الخروج على قواعد التركيب هي الخاصية الوحيدة التي يتفق فيها الشعر التقليدي والشعر الحر، وعليه فهي الخاصية الوحيدة التعريفية لانها توجد في كل أجزاء المعرّف كما قال بذلك جون كوهين، والانحراف هو الشرط الضروري لكل شعر فبناء الشعر يتحقق بطريقتين أو مقياسين وهما:[6]

المقياس الأول: فباعتباره نظاما لتطبيق عدد من القواعد.

المقياس الثاني: فباعتباره نظاما لصدع أو تجاوز هذه القواعد، "مع مراعاة أن جسم النص ذاته لا يمكن أن ينطبق على أي من هذين المقياسين معزولا عن الآخر ومستقلا بنفسه، فبالعلاقة بين،ذينك التصورين وبالتوتر البنائي وبالمزج بين ما ليس ممتزجا بهذا وبهذا فقط يتم

إبداع النتاج الفني وعليه فالمعنى "في النص الأدبي ينبثق ليس فقط من تطبيق القواعد البنائية المعينة، بل وينبثق كذلك من خلال الانحراف عنها".

"فإذا كان النثر يحتفل بجوهر المحتوى أي المعنى، فإنّ الشعر يحتفل بشكل المعنى وشكل المعنى هو الأسلوب".

فالأسلوب هو الذي يجعل الشعر شعرا، وعليه تنعقد آمال الشعراء وأحلامهم وهو التشكيل الفني للغة، أي هو بنية مكونة من عناصر شتى تتآزر متفاعلة لتحقق شكل المعنى أي أنها بنية عضوية، وهذا يعني أنّ أي تغيير في أي عنصر من عناصرها سيحدث تغييرا في بقية العناصر من جهة، وتغييرا في شكل المعنى من جهة أخرى.[7]

والمطلع على تجربة الشاعر ابن الشاطئ الشعرية يجد سمات فنية قد التصقت بإبداعه الشاعري وهذا نتيجة معايشة لحظة ولادة القصيدة من بداياتها حتى تصل إلى المتلقي، فقد متح ابن الشاطئ من مدرسة الحياة وخبر دواليبها، وغرف من معين مدرسة التاريخ الناصعة ومن تجارب من سبقوه في هذا الميدان فهو كشكول معارف وخزانة شعر وأدب رصين من عهود أدبية غابرة، إذ نجده يأخذ من مدرسة ماقبل الإسلام ومابعده وحتى عصرنا الحديث والمعاصر الذي عاش بعض أيامه، فقطف من كل عصر زهرة فواحة عم أريجها حقول الأدب والشعر خاصة، في قصيدة خالدة ضمنها وجيب قلبه المكلوم وطاقاته الشعرية الكامنة جال بنا في عصور غابرة كانت زاهية وخصيبة لأمتنا، ولكن دوام الحال من المحال فوسمها بـ "القصيدة الممنوعة بمرسوم سلطاني .....؟؟؟"

تذكو الأعاصير في صدري وتنفجر  ياحادي العيس غيل السمع والبصر
ياحادي العيس ... هل مرّت قوافلنا  يوما ؟ وهل ضحكت في رملها العصر ؟
وهل ب" حومانة الدراج " من أثر  ضاو ...تموّجه أيّامنا الغرر؟
فيستفز بلا زيف مطلّقتي  جهرا ... وتفرش أهدابي وتنفطر...؟؟؟
حاولت عشرين عاما قبل فاعتذرت  حزينة ... وشواني القلب والنظر
وخلّفتني أعدّ النجم منفـردا  فلا القبيلة واستني ولا الكبر .....؟؟؟
شابت ضلوع الأماني دون عودتها  وضيّعتني رياح الجهل .. والذكر ....؟؟؟؟
عشرون عاما ... وأوراقي مبعثرة  على الموائد ... والآفاق تختصـر
وضارب الطبل معتّد بقامته  رغم الهزيمة ... فالترويض معتبر
عشرون عاما أضيفت عندما غرقت  نار الأغاني .. وما انزاحوا ولا اعتبروا
وكلما مد جرحي ظل أخمصه  تعقّبوه ... وغيل الظل والخبر ....
عشرون عاما وأجيادي محاصرة  وكل بارقة تخصى .. وتحتضر ..
رجعت من رحلتي والصدر منقبض  والهم يأكل أعصابي وينتشر
وليس في جعبتي شيئ يزورني  إلاّك حين يطول الليل والسفر ...

نعم الصديقان في بحر الظلام ..أنا وأنت نعم جنون الموج .. والسهر
ونعم عارضة الأزياء ترقبنا مبهورة بالمرايا وهي تأتزر
ياحادي العيس كم جرحت ذاكرتي وكم تطاول في برديك مدّكر
نعم الأليفان .. أنثى الريح مدلجة وأنت ...نعم الليالي السود .. والخفر
فكم مررت على الوديان منبسطا وكم تمرّغ في خدّيك منحدر....
وكم أنيخت أمان كنت تنشدها جهرا .. فتطرب من موّالك العبر ...
وكم تناغت الكثبان مائجة والحب يزهر في أحضانه القمر
ياحادي العيس .. نعلي لا تطاوعني أغرب ... وإلاّ .... فلن يجديك مؤتمر
واترك نزيفي .. وحاذر أن تلوّثه يوما فكم حضرت " أوفى " وما حضروا
أغرب بعيد طويل العمر مختزنا زيف الشعارات " عام الفيل " مقتدر ...
ها قد تعرّت على الآفاق سيدة عظيمة بعثت في صدرها " مضر "
عادت إلى الوطن المحتل وارفة تجسد الزمن الضاوي ... وتبتدر
هي الضحى .. أم .. أوفى لا تطاولها شمس ولا تدّعي زورا .. ولا تزر

في هذه الأبيات مازال الشاعر يتأوه لحال فلسطين ويبكيها حرقة وألما نتيجة ما وقع لها من تخاذل الجيران والأهل وتخليهم عن نصرتها، وهو ينادي بأعلى صوته لنصرة فلسطين الأبية وكفكفت دموعها المنهمرة سيولا ووديانا، فهو ينادي حادي العيس فربما ترنم بأغاني الإباء والشموخ ليعيد عهد العز والكرامة الممتهن منذ مدة، ويجتمع على شدو نايه ماتفرق من شتات الفلسطينيين عبر بقاع المعمورة ويلتفتوا إلى وطنهم المغتصب بغير حق من حثالة جمعوها من هنا وهناك وغرسوها في جسم فلسطين، وهو يذكر ما مضى من عهد تليد لهذه الأمة الخالدة التي كانت مضرب المثل في الإباء والأنفة ونصرة المظلوم مابالها اليوم خنعت ورضخت لعدوها واستكانت وضعفت شوكتها، فكأني بابن الشاطئ يستفز بصوته المبحوح نخوة العرب والفلسطينيين على الخصوص، بضرورة العودة إلى مصاف الريادة ونزع ثياب الذل والهوان وتغييره بلباس آخر يليق بمقام الريادة والتميز زمن الرجال المخلصين لقضاياهم، فهو في تذكير دائم يبتلك الصور والروائع التي عاشتها الأمة زمن العزة والفخر والسؤدد، فقد طال زمن الاستجابة لصرخته المدوية، ولكن يبدو أن الجميع في سبات عميق يغطون ولا أحد سيستجيب لصرخة ابن الشاطئ ولا مغيث له، فقديما نادت امرأة حرة المعتصم فلبى نداءها وفك أسرها من عدوها ولكن اليوم الأمة مخدرة من خليجها إلى محيطها، فمتى تستفيق من غفلتها وتنتبه لحالها وتنتفض ضد عدوها وتطلق حالة الوهن والاستكانة التي طالت معها؟ يا أمة ضحكت من جهلها الأمم ماسبب هذا الخنوع والتراجع ومادوافع هذا التردد؟ ألضعف الإمكانات المادية أم البشرية أم لأسباب مجهولة لا ندرك حقيقتها، إن ابن الشاطئ ظل ينتظر مواساة ذوي القربى والخلان لزفرته التي أطلقها مدوية ليسمعها كل العالم ويدرك الجميع أنّ وطنا اسمه فلسطين قد ضيعه أهله قبل أعدائه، وصرنا كأمة ننتظر ماتجود به علينا منظمات حقوق الإنسان وهيئة الأمم المتحدة من قرارات جائرة وظالمة في حق الشعب الأبي، ومادمنا مستكنين ومتخاذلين فلن تقوم لفلسطين قائمة فأعداء أمتنا فرقونا

وجعلونا شعوبا وقبائل وقتلوا فينا روح التضامن والهبة الإيمانية وصيرونا خرافا تقدم قربانا لغيرنا وهم يضحكون علينا صباحا مساء، لأنهم أدركوا بأنّ الوهن قد تمكن منا وتغلغل في ذواتنا وتعايشنا معه وصار ملازما لنا، ولا نقر قرارا إلا إذا وافق عليه شرطي العالم أمريكا وحلفائها، لقد شغلوا أمتنا بشتى أنواع اللهو من مسابقات رياضية وغنائية وتفننوا في ذلك ونحن نعتقد بأنهم يخدموا ذلك حبا في الثقافة وتقد الشعوب بل هم يخدروننا بتلك الملهيات حتى لا نتفطن لألاعيبهم ومخططاتهم لإفراغ الأمة من محتواها الإيماني وتشبثها بقيمها و مبادئ دينها ومقدساتها ، ونحن في لهونا وغينا متمادين، ألا من صلاح الدين جديد يعيد لهذه الأمة نخوتها وريادتها، ألا من رجل رشيد يعيد الأمة إلى سكتها التي حادت عنها دهرا وضيعت بوصلة الطريق الصحيح من مدة، فالشاعر ابن الشاطئ يتطلع إلى نهضة حقيقية للأمة تتفوق فيها على أعدائها وتنتصر لذاتها وكرامتها المهدورة، وتتولى قيادة ذاتها بنفسها وتكون هي القائدة لا المقودة، ولكنها أحلام شاعر تمناها حقيقة على أرض الواقع ليزول عنه الكمد والغم الذي لازمه منذ فترة ليست بالقصيرة، فكل أمانيه أن يرى فلسطين محررة من براثن عدوها وقيود جلادها الذي طمس أنفاسها وأذاقها الحنظل، لقد كان ابن الشاطئ ثائرا على أوضاع فلسطين خاصة وحال العرب والمسلمين عامة، وثورته نابعة من تجربته التي عاشها من داخل الوطن المحتل ثم شتاته والمنفى الذي قدّر له أن يتلظى بسلبياته، فقد ارتحل من مكان إلى آخر فرارا من عدوه لأنه كان يحمل قضية فلسطين أينما حل وارتحل إلى آخر يوم في حياته وشتان من يعيش لقضية ويموت من أجلها ومن يعيش لملذاته ولا يبالي بنكبة الوطن أو الأمة، لقد صال الشاعر وجال أقطارا عدة وزار أماكن شتى لكنه لم يجد أفضل من تراب وطنه فلسطين التي ضيعها أشباه الرجال والمتخاذلين قديما وحديثا، وكأن قدره أن يظل مطاردا ومبتعدا عن أهله وذويه وقد دفع الثمن غاليا نتيجة تعنته وتعلقه بالدفاع عن وطنه فلسطين، فقد عاش لها ومات من أجلها وحقيق به أن نسميه شاعر القضية الفلسطينية بلا منازع، فقد كانت هناك أسبابا موضوعية وأخرى قسرية غيبت شعر ابن الشاطئ عن عامة الناس فلم يذكروه في مناسباتهم الإحتفائية، فقد عمل في صمت لصالح قضيته الأم وما أراد جزاء أو شكورا من أحد، لقد آلم ابن الشاطئ تقاعس المسؤولين وحكام العرب والمسلمين وعدم جدتهم في الدفاع عن قضية فلسطين وتجلى له ذلك في عدم إدراجها ضمن أولوياتهم وهذه خيانة أبدية لأم القضايا العربية والإسلامية، ففلسطين لا تحررها الموائد المستديرة ولا المعاهدات المنقوصة ولا الطاولات المليئة بشتى الأطعمة، ولا نياشين الحكام التي علقت جورا وبهتانا على صدورهم وهم لم يقدموا ولو جزءا من جهدهم الدبلوماسي لصالح نصرة فلسطين، فكلما تذكر الشاعر تلك الأيام الخوالي الغابرة لأمتنا زمن الرجال بكى بدموع حارة على ضياع فلسطين وتخلي الحكام عنها، وهو دائما يذكرنا "بأم أوفى" التي ضربت أروع مثل في الوفاء لزوجها زهير بن أبي سلمى فنحن كحكام وشعوب لم نف فلسطين حقها وتخلينا عنها في أحلك الظروف، وما قدمنا لها دعما لا معنويا ولا ماديا، وهو تمنى عدم رؤية أولئك المتلونين كالحرباء في مواقفهم، لقد هيمن على النص أسلوب النداء والذي من خلاله أراد أن يبعث صرخة في أعماق ذات كل عربي ومسلم ليحرك الساكن في كل ذات لها نخوة دفينة في أعماقها تأبى الخنوع والذل لغير الله، فهو أراد أن يبلغ رسالة لكل حر في هذا الوجود ليكسر قيد التردد واحترام العدو أكثر من اللازم، وكأني به يريد تنشيط الهمم وبعث روح الجهاد في أفراد الأمة للدفاع عن الثوابت الخالدة ،وفي تكراره لأسلوب النداء فهو يشخص أبعاضا من ذاته وينادي كلا منهخا على حدة، فيصف حاله البائسة في توجع قانط ونحيب يخالطه شجن عميق وهذا يعني أننا أمام ضرب مخصوص من النداء يفيض منه معنى الندب والاستغاثة "ياحادي العيس كم جرحت ذاكرتي" إنه يندب أبعاض ذاته فهل نستغرب والحال هكذا فهو ين عن حالته النفسية التي صارت مثل هذه الحالة نتيجة ما رأى وشاهد وهو ينم عن كثافة عاطفية مدرارة يرزح تحت وطأتها حتى لتكاد

النفس تنوء بحملها ؟ ورغم ماعانه الشاعر من ضيق في تقبل تلك الحالة التي صار عليها الوطن السليب إلا أنه ظل معتصما بذاته وبحبل الله ويقينه بانّ فلسطين ستتحرر من ربقة عدوها ولو بعد حين، وهذا يؤكد لنا قوة شخصية ابن الشاطئ وعزيمته الفولاذية وصدقه في التعاطي مع قضايا أمته الحساسة، واستخدم أسلوب الاستفهام وغرضه هو تنبيه الغافل عن حقائق وجود العدو بديار العرب والمسلمين فهو يذكرنا بالفرص التي أتيحت لنا وكان بإمكاننا تحقيقها لتحرير الأرض من سطوة العدو الصهيوني ولكننا ضيعناها سدى ولم ننتبه إلا بعد فوات الأوان، لقد استرسل ابن الشاطئ في حواريته الداخلية ومناجاة فؤاده استرسالا لا فتا للنظر ولكنه اكتفى باللمحة الدالة والإشارة الخاطفة، إلا أن النص ساده صوت واحد وهو صوت الشاعر ذاته الذي أفرغ بوحه وأشجانه وبعث بآهاته لكل حي له ضميرا يشعر بالظلم ولا يرضى بالذل، بوح عميق امتد على طول أبيات القصيدة تجلت فيه صورة العالم من حوله وبما يشعر به لحظة كتابته وولادته القيصرية من رحم الأحداث المؤلمة التي مرت بها أمته لتوضيح أفكاره ورؤاه ونظرته للحياة استخدم ابن الشاطئ كما معقولا من الصور حتى يضفي على نتاجه مسحة جمالية يتفاعل معها المتلقي ويتجاوب مع كنهها، ويدرك غاياتها القريبة والبعيدة، من ذلك استعماله لأسلوب النداء وهو من أهم الأساليب الإنشائية التي يتكئ عليها الشعراء للتعبير عن حالاتهم العاطفية، أو بث انفعالاتهم النفسية ومكبوتاتهم الداخلية عند انشراح الصدر أو انقباض النفس، وهو من الأساليب التي تختزن طاقات تعبيرية عملاقة، تسعف المتكلم عند التواصل أو في حال الإفصاح عن مشاعره وأحاسيسه، ويعتمد ابن الشاطئ على أسلوب النداء في تشكيله اللغوي لخطابه الشعري؛ حيث يهيمن على مساحة شاسعة من بنية القصيدة عنده؛ مما أكسبه خصيصة أسلوبية مميزة في نتاجه الشعري، وهذه الخصيصة لم يكتسبها لكونها إحدى البنى الأسلوبية المهيمنة فقط فأسلوب النداء كثير الاستعمال على اللسان العربي، ولكن لكون تشكّله بطريقة غير مألوفة في لغة العرب وهذا يعتبر خروجا عن معيارية اللغة أو عرف الاستعمال، لأنّ الصورة المعيارية لبنية النداء هي "أنادي + أنا + فلانا"، لكن ابن الشاطئ يحيل هذه الصورة إلى "أنادي + أنا + أنا ونفسي" في كثير من المرات؛ أي أنه ينادي الضمير "ضمير المتكلم" الذي لا يجيزه النحو العربي، في ديوانه "أبجدية المنفى والبندقية"، نجده قد استعمل النداء مرتين في:

يا أم أوفى .. تلك جا..... رتنا .... وذاك أخي عمارة[8]

وفي قوله :

ياحادي العيس .... هل مرت قوافينا ...يوما ؟ وهل ضحكت في رملها العصر ؟

فحدوث هذه الحركة الذهنية لدى المتلقي كان نتيجة تحولات أسلوبية لبنية النداء "يا أنا" التي تعتبر خروجا عن معيارية اللغة أو عرف الاستعمال؛ لأنّ الصورة المعيارية لبنية النداء هي "أنادي + أنا + فلانا"، لكن ابن الشاطئ يقلب هذه المعادلة رغبة في تأكيد أمر في ذهنه يريد تبليغه للمتلقي، إذا كان الأصل في النداء طلب الإقبال أو تنبيه المخاطب حقيقة، فابن الشاطئ قصر أسلوب النداء في خطابه الشعري غالبا، على جانبه المجازي قربا أو بعدا للتعبير عما يختلج في صدره من عواطف ملتاعة مشحونة بمرارة الاغتراب القسري عن الوطن أرضا وإنسانا، ومكتوبة بنار الحسرة والألم، على حال الأمة وهوانها وتخاذل شعوبها، أمام العدو أ أو للتعبير عما يحسه إزاء أمته العربية "أم أوفى" ومن خلالها وطنه "فلسطين" وعن شرف الانتماء لهذا البلد المقدس الطاهر كما في قوله:

يا أم أوفى ... ياسنا ..... ني .. رمدي هوس السكون[9]

وقوله :

يا أم أوفى .... ياهواي الصعب .. ياشرفي وديني[10]

فأم أوفى المرأة الرمز؛ رمز الوفاء للزوجة العربية الأصيلة، ورمز الوفاء انتسابا للأرض ورمز الأصالة فأداة النداء "يا" التي تكررت مرات لا يفهم منها قصد النداء أو التنبيه، بل هي زفرات مندفعة من أعماق ذات الشاعر حاملة لمعاني التمسك بالهوية ومقومات الأمة الثابتة، فأداة النداء "يا" لا يمكن أن تحتمل معنى محددا بل هي أداة ينفث الشاعر من خلالها تأوهاته وزفراته، متفائلا بقرب الإنفراج وتحرر فلسطين من ربقة المحتل الغاصب، فالشاعر فنان بطبعه تتشكل في ذهنه صور ورؤى وبناء على ذلك التشكل من خلال معايشته للحياة والواقع يكتشف أنّ ثمة أمورا ينبغي أن تدرك وتتخذ أشكالا لما هي عليه، وللتعبير عن هذه الخلجات النفسية والدفقات العاطفية يستعمل أدوات الاستفهام للدلالة على حركيتها ونشاطها، ولما فيها من الطاقات الإبداعية الكامنة التي يتفجر منها سحر اللغة وجمال الألفاظ، ولما تزخر به من مكنونات تعبيرية حبلى بدلالات وإشارات تشحن التركيب بإيحاءاتها المتنوعة.

**خاتمة**

في هذا الإطار المحدد للدراسة عبر الشاعر ابن الشاطئ عن رؤية بالغة الصدق والتماسك والإيحاء هي رؤية شاعر أرد أن يصبح الشعر واقعا والواقع شعرا منسوجا، من تفاصيل الحياة اليومية فقد كان يمزج تفاصيل يومياته بعذابات جيل الخيبة والنكسة والانهزام والتردد والألم، وكان يرى الواقع من خلال هذه العذابات رؤية ثاقبة ونافذة، رؤية شاعر من أصحاب الوعي الفعلي، يغوص وعيه في أحشاء الحاضر لكنه لا يحلق إلى آفاق الحلم بالوعي الممكن، ذلك الحلم الذي يلاحق الزمن القائم على الصيرورة المستمرة، يفعل فيه الإنسان ويتفاعل به لقد عاش ابن الشاطئ في مفترق الطرق زمن الاستلاب الحضاري للأمة، وإن غاب ابن الشاطئ في باطن الأرض وانسرب في مياه الشاطئ وجذور الأشجار، سيصبح حاضرا أبدا في الكلمات الوارفة وعلامات أكيدة على صفحات الشعر في زمن آت وماهو ببعيد، فحس المكان حس أصيل وعميق في الوجدان البشري، خصوصا إذا كان المكان هو "وطن الألفة والانتماء" الذي يمثل حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض – الأم – ويرتبط بهناء الطفولة وصبابات الصبا، ويزداد هذا الحس شحذا إذا ما تعرض المكان "للفقد أو الضياع" كحالة فلسطين، فأكثر ما يشحذ هذا الحس هو الكتابة عن "الوطن في المنفى" إنّ الوجود في المنفى يعني الانقطاع عن الوجود الفعلي في الوطن، كما يعني في الوقت ذاته تمددا داخليا لهذا الوجود ذاته وحين يصبح وجود الوطن داخليا تنشط حركة الخيال وتظهر مستويات متعددة للحلم والذاكرة فتشكل مجموعة عناصر مجتمعة بناء لغويا يكون بديلا عن الانفصال الخارجي عن الوطن، ومن ثم لا يكون الانسحاب الاختياري أو الاقتلاع القسري من المكان الذي يحدث في الواقع موتا لفكرة الوطن وإنما تظل الفكرة قادرة على النمو في الغربة فالشعراء في المنفى يعيشون وطنا لغويا يبنونه في ديوان أو في قصيدة شعر، لقد عبّر ابن الشاطئ في نتاجه الشعري عن الروح الفلسطينية المعذبة فمزج تاريخه الشخصي بنضال شعبه المقاوم واستلهم تواريخ العوالم ليضيئ صراع وطنه ضد الاحتلال، فغمس قلمه في سير العظماء والاقتباسات الدينية ليقرأ منفاه الذاتي والوطني وكان في ذلك كله مسافرا زاده الشعر، صار لا

يتحدث إلا به حتى أصبح قصيدة تتحرك على قدمين وقلبا يخفق بالعروض وجسدا تشكله الحروف، فابن الشاطئ مازال حيا في قلوب عاشقيه وهو حي في وجدان كل قارئ ومتذوق لعيون الشعر وهو حي مادام الشعر حيا.

**الهوامش**

1- ابن الشاطئ، ديوان أبجدية المنفى والبندقية، رابطة إبداع الثقافية، ط1، الجزائر، 2004 .ص/ص 13، 14.

2- محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط3 ، 1983. ص 140.

3- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص 14.

4- يوري لوتمان، تحليل النص الشعري، تر، محمد فتوح أحمد. ص 22.

5- تحليل النص الشعري، ص 24.

6- عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب. دار التنوير الأردن 2013، ص 1.

7- ابراهيم السامرائي، لغة الشعر بين جيلين. دار المعارف ط 1980، ص 8.

8- أبجدية المنفى والبندقية، ص 15 - 17.

9- أبجدية المنفى والبندقية، ص 13.

10- أبجدية المنفى والبندقية، ص 105.